المكانة العالمية للإسلام في هذا العصر

للأستاذ محمد فريد وجدي بك

بعد أن مرت على النوع الإنساني عشرات من القرون في حالة تنازع البقاء، ثم لطلب السيادة وبسطة السلطان جريا على عادات جاهلية فرضتها الحاجات الجسدية تارة والميول الهوائية تارة أخرى. وتبعت هذه التعديات تصرفات وماجريات تعسفية، أملتها على المتغلبين الغرائز الحيوانية، والطبائع الوحشية، فأصبحت رسوما تقليدية، لا تثير عاطفة، ولا تجرح إحساسا؛ بعد أن مر هذا كله على النوع الإنساني أخذ يبدو في حيز التفكير البشري رد فعل لهذا العدوان المتأصل في النفوس، ونتجت عنه بحوث خلقية، ودراسات فلسفية، منذ منتصف القرن التاسع عشر، تدل على وشك حدوث دور انتقال من هذه الحال الحيوانية التي درج عليها الأقوياء في جميع الأجيال حيال الضعفاء إلى حالة وسطى من العدل والإنصاف والرحمة؛ وكان ذلك سببا في حدوث كتابات تدافع عن الضعفاء المقهورين، وتستدر لهم من الأقوياء المتغلبين العطف والشفقة، ولم تبخل عليهم باعتبار هذا العطف حقا لهم يجب على سادتهم الاعتراف به.

لم تكتف هذه البحوث والدراسات بالناحية المادية لتلك الطوائف المقهورة، بل تناولت ناحيتهم الدينية والأدبية، التي يحتقرها الأقوياء ويأنفون البحث فيها، ويعتبرونها من الأضاليل الوحشية، فوجدتها لا تقل عن سواها دعوة إلى الخير، وردعا عن الشر، ومطالبة بالإحسان والبر؛ وهي وإن كان قد أصابها التحريف فليست بأكثر من سواها التياثا بالخرافات، ولا بأعصى منها قبولا للإصلاح، فنشأ من كل هذه الكتابات والبحوث تلطيف لخشونة الاستعمار، فرضخ القاهرون المقهورين بقسط من التسامح مكنهم من فتح المدارس لأبنائهم، ونشر الصحف للمطالبة بحقوقهم. واضطرت الأمم المتغلبة إلى زيادة قسطهم من الحرية، فلم يلبثوا أن تطورت مطالبتهم بحقوقهم إلى ثورات مسلحة، وقلاقل متوالية، اضطرت معها أكبر الدول الاستعمارية إلى التخلي عن أكبر مستعمراتها، وتخفيف الوطأة عن سواها،

إلى أصحابه بالقدوة، أصبح الإسلام الذي بدأ بخديجة وعلي وأبي بكر وزيد، دين الناس ودنيا العالم؛ يقف به في آخر الغرب عقبة بن نافع على شاطىء المحيط الأطلسي ويقول وقد خوض جواده في الماء: «اللهم رب محمد! لولا هذا البحر لفتحت الدنيا في سبيل إعلاء كلمتك. اللهم اشهد» ويتجه به إلى آخر الشرق قتيبة الباهلي، ويأبى إلا أن يوغل في بلاد الصين، فيقول له أحد أصحابه محذراً: «لقد أوغلت في بلاد الترك ياقتيبة والحوادث بين أجنحة الدهر تقبل وتدبر» فيجيبه قتيبة: «بثقتي بنصر الله توغلت. وإذا انقضت المدة، لم تنفع العدة» فيرد عليه المشفق المحذر: «أسلك سبيلك حيث شئت، فهذا عزم لا يقله إلا الله».

فليت شعري يا علماء الإسلام ويا زعماء العرب، ماذا في نفوسنا وأيدينا من دين محمد وأخلاق محمد وتراث محمد؟ ألسنا نعيش اليوم مسلمين من غير إيمان، ومستقلين من غير سلطان، ومتحالفين من غير ألفة؟ وهل كان ذلك يكون لو اتخذنا من أحكام الله منهاجا ومن وصايا رسوله علاجا ومن حياة السابقين الأولين قدوة؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الانسانية من أسر الأوهام وطغيان الحكام وسلطان الجهالة. فما أجدر القلوب الواعية الحرة على اختلاف منازعها ومشاربها أن تخشع إجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة، ونبي الحرية والديمقراطية، وداعية السلام والوئام والمحبة!

حسين الزيات

مراعاة لهـذا التيار الجارف من الشعور بالحقوق الطبيعية . وأصبحت الأمم القـوية المحافظة على التكاتم الحديدية فى جهاد جهيد مع مستعمراتها ، وهى تعلم أنها تحاول المحال فى الإبقاء على التقاليد القديمة ، وإنه سيأتى يوم وهو ليس ببعيد ، ينتقل فيه سلطانها المغتصب إلى أهل البلاد يحكمون بلادهم بأنفسهم تسليما بالحق الطبيعى للأمم .

وقد اشتغل من ناحية أخرى رجال من المنقبين عن المدنيات القديمة ، فوجد وأن للأديان كلها أصلا واحداً وغرضنا واحداً ؛ فإما أصلها فهو التسليم بوجود خالق للوجود ؛ وأما غرضها فهو العمل بما شرعه سبحانه للناس من السيرة الصالحة والأخلاق الحميدة . وأما ما وقعت فيه الأديان من تعديد الآلهة ، ومن الشطط فى ضروب العبادات ، وصنوف الخرافات ، فكلها ليست من الدين فى شىء ؛ ولـكنها من وضع رجال الأديان حرصاً على المحافظة على سلطانهم وتسخيراً للشعوب لإرادتهم .

تحت تأثير هذين العاملين ، وهما ثبوت وحدة الأديان ، وتعذر الاستيلاء على الأمم الضعيفة وتسخيرها بالقوة ، ارتسم فى الجو العالمى حقيقتان كبريان : أولاهما وجوب إيجاد تعارف سلمى بين الشعوب المختلفة ، يرمى إلى تعاون بين أجناس النـوع البشرى ، تبطل فى ظله الطلول المنافسات الاستعمارية ، والمنازعات بين الشعوب القوية . أخذهما التنويه بوحدة الأديان ووجوب تطهيرها مما التصق بها من الآراء ، البشرية ، والخياليات الشعرية لتؤدى مهمتها فى رفع النفوس إلى المستوى الرفيع الذى يليق بكرامتها الفطرية .

هذان الأصلان هما أخص ما دعا إليه الإسلام منذ نحو أربعة عشر قرنا . فأما عن الرسالة الإنسانية العامة ، ووجوب وجود المساواة بين الناس والتعارف بين الشعوب ، فقد جاء عنه فى الكتاب الكريم قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » . وقد عمل المسلمون بهذه القاعدة فلم يتساهلوا فى الأقطار طلباً لاستغلال الأمم ، ولا رغبة فى تسخيرها ، ولـكن لمعاونتها على النهوض ، وإحكام أواصر التحاب معها . وقد برت بما وعدت ورفعتها من حالتها التعسة إلى مستوى رفيع من الثقافة والمدنية ، حتى أن شعوبا كانت تستدعيها لتحل بين ظهرانيها تخلصاً من نير حكوماتها الوطنية .

وأما من الناحية الدينية فإن الكتاب الكريم قد صرح بما اكتشفه العلم فى القرن التاسع عشر من أن أصل الأديان واحد وأنها ما تخالفت إلا بسبب ما أدخله إليها المتسلطون عليها ، إشباعا لشهواتهم من الحكم والسيطرة . فقال تعالى عن الإسلام

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه . الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب فلذلك فادع (أى فلوحدة الدين فادع) ، واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) . الله يجمع بيننا وإليه المصير » أى أنه شرع لكم من الدين ، ما نزل على أبيكم آدم ، فإن دين الله لا يتغير ، ولـكن الأمم هى التى تواتيه فرقته وصرفته عن أصله . فإياك أن تعدل عن هذا إلى سواه « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء » .

وأبلغ مما مر فى وجوب رد الأديان إلى وحدتها الأولى قوله تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسـله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ؛ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » . فقد أمر المسلم أن يؤمن بجميع الأنبياء والرسل ، وأن لا يتخير بعضهم فيؤمن بهم ويكفر البعض الآخر ، فلا تتم الوحدة البشرية التى يريدها الخالق لعباده ، وهذا أقوى فى الدلالة على هذا المبدأ فى الإسلام ، وهو عينه ، رمى الإنسانية ؛ ومردها الذى لا مصير لها غيره كما يتبينه الذين يتتبعون تطور المدركات البشرية .

وعلى هذا يكون الإسلام قد قصد بما شرعه للناس من دين عام توحيد البشرية . ووافق الطبيعة الإنسانية فيما ستؤول إليه تحت توجيه النواميس الاجتماعية ؛ ويكون قد ترجم عما سيقع فى مستقبل بعيد بقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

محمد فريد وجدى